إيسيسكو
ICESCO

أحمد بابا التنبكتي

نموذج للدبلوماسية الحضارية في غرب إفريقيا

أعمال الندوة العلمية التي عُقدت بجامعة القاضي عياض،
ضمن برامج مراكش عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي 2024

منشورات
الإيسيسكو

أحمد بابا التنبكتي
نموذج للدبلوماسية الحضارية في غرب إفريقيا
إيسيسكو
ICESCO

وأخيرا لا يفوتنا أن نشير إلى أنّ أحمد بابَا، رغم تكرار حديثه عن محنته، فقد اعترف بفضل المغرب عليه، حين قال: «بوصولي إلى منبع العلم في الديّار المغربيّة، حضرة الإمامة العليّة والمولويّة الهاشميّة الأحمديّة المنصوريّة.. بادرت إلى كتب ذلك الذيل[305]..أهديتُه، وإن كنت في صنعي، كجالب تمر إلى هجر..».

وما إقدامه على إهداء نسخ من مؤلّفاته إلى السلطان أحمد المنصور إلاّ أحد الأدلّة على أنّه لقي من القَبول في المغرب ما لا مزيد عليه، وأنّ أثر نفيه الإيجابي إلى مرّاكش لم يمْحُه الزمن الطويل، لأنّ جذور الصلات بين المغرب وبلاد السودان كانت أعمق من أن تجتثّها تلك الحادثة العابرة.

305.يقصد كتابه»نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، الذي ذيّل به «الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب»لابن فرحون. م. س.

أحمد بابا: إسهام استثنائي في الصلات الحضارية بين السودان الغربي وبلاد المغرب

الدكتور سعد الدين العثماني
رئيس الحكومة المغربية سابقا، ورئيس مركز الدكتور عبد الكريم الخطيب للبحوث والدراسات

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

إن الكتابة في موضوع دور أحمد بابا التمبكتي في التفاعل الحضاري بين السودان الغربي وبلاد المغرب ليست سهلة ولا ميسورة، وذلك لغزارة ما كتب سواء حول العلاقات الغنية والممتدة بين السودان الغربي وبلاد المغرب، أو حول شخصية أحمد بابا التمبكتي.

ونهدف في هذا العرض إلى إبراز أن إسهام أحمد بابا في العلاقات الحضارية بين ضفتي الصحراء، استثنائية، وشكل إضافة نوعية وتحولا إيجابيا فيها.

أولا : تهافت الأطروحة الاستعمارية: الإسلام الأسود

لقد أحسنت منظمة الإيسيسكو باختيار موضوع الصلات الحضارية بين غرب إفريقيا وشمالها، لأن الأطروحة الاستعمارية كانت منذ برزت الأطماع الاستعمارية في المنطقة تعمل على الفصل بين إسلام شمال منطقة الصحراء وإسلام جنوبها. وأبدعوا لذلك مصطلح «الإسلام الأسود».

وكان أول ظهور لهذا المفهوم على الراجح في كتابات ألفريد لو شاتيليه[306] عام 1899، فأشار في كتاب له سنة 1888م إلى الانقسام العقائدي بين إسلام أسيوي وإسلام إفريقي[307]. ثم استخدم بشكل متكرر عبارة الإسلام السوداني سنة 1899م في كتابه «الإسلام في أفريقيا الغربية»[308]. ثم عنون الفصل الأخير من كتابه: «مستقبل الإسلام السوداني»، ولخص فيه أفكاره حول ما يسمى «السياسة الإسلامية للسلطات الاستعمارية الفرنسية».

ثم استعمل المصطلح سنة 1910 من قبل آلان كيليان، وهو موظف مدني في وزارة المستعمرات الفرنسية، وأعطاه لونًا عنصريًا صريحًا، يقول: «يتمتع الإسلام السوداني بميزة فقدان تعصبه مع تزايد اللون الأسود؛ لا يستمر التعصب إلا بين هؤلاء السود المختلطين نتيجة لاتحاد العرب والفولاني»[309]. ويعتبر كتاب كيليان هو أول نص يشرح السياسة الفرنسية بأفريقيا الغربية في الفترة الاستعمارية تجاه الإسلام والمسلمين. وارتبطت نظرية الإسلام الأسود بالتسلسل الهرمي للحضارات في تصور الدراسات الاستعمارية، والتي تصنف السود في أدنى الترتيب، كما تصنف المسلمين السود فوق الوثنيين السود.

وتهدف نظرية «الإسلام الأسود» إلى قطع إسلام جنوب الصحراء الكبرى عن باقي الدول الإسلامية، وخصوصا منها الدول العربية ودول شمال إفريقيا.

306. ضابط فرنسي اشتغل بالدراسات الاجتماعية في «كوليج دو فرانس»، توفي سنة 1929م.
307. L'Islam au XIXe siècle, p 184.
308. L'Islam dans l'Afrique Occidentale, p 13, 139, 144, 279, 299, 316.
309. La politique musulmane dans l'Afrique occidentale française, p 172

وتنبني الأطروحة الاستعمارية على أمرين بالخصوص:

أولا : كون ذوي البشرة السوداء أقل ذكاء من ذوي البشرة البيضاء. فيصف ألفريد لوشاتولييه A. LE CHATELIER الزنوج بأن «تطورهم الفكري والاجتماعي متدن جدا» مقارنة مع شعوب «يهودا واليونان وإيطاليا والغال وشمال إفريقيا. ويعزو إقبال الوثنيين الأفارقة على الإسلام إلى «ذكائهم المحدود»[310] مع اعترافه ببساطة الإسلام وسهولة فهمه مقارنة بالمسيحية.

ثانيا : كون الإسلام في جنوب الصحراء مختلفا عن الإسلام في شمالها، لأنه متلبس بمعتقدات وممارسات دينية، لها بنية تحتية ذات أصل إحيائي، يعتقد بأن كل كائن توجد به أرواح بما فيه الجمادات والنباتات والظواهر الطبيعية. يقول ألان كليان: «الإسلام السوداني (...) ما هو إلا إسلام سطحي، إسلام الواجهة، الممارسات الوثنية تخترقه بقوة أكثر من الأحكام الإسلامية الصارمة، السود يعرفون فقط قول السلام، ويجهلون الباقي»[311].

وأوصت الوثيقة المسماة : «السياسة الإسلامية في إفريقيا الغربية الفرنسية» بإبعاد «الإسلام الأسود» عن تأثيرات باقي العالم الإسلامي، حتى يقبل بالاستعمار الفرنسي. وهي تأثيرات يصفونها بأنها «معادية للحضارة ومعادية لفرنسا»[312].

310. L'Islam dans l'Afrique Occidentale, p 351
311. Ibid, p 172 et 174.
312. Ibid, p 174.

وفي مواجهة تلك الأطروحة العنصرية والانقسامية، توالى الجهد الفكري والعلمي الذي يربط أمة الإسلام بعضها ببعض، ويبني ثقافية مشتركة على ضفتي الصحراء. وتناول موضوع العلاقات الحضارية بين السودان الغربية وبلاد المغرب هو رد قوي على هذه الأطروحة الاستعمارية. كما أن سيرة أحمد بابا التمبكتي والعمل العلمي الذي أنجزه، لهو رد عملي عليها، وتفنيد لتشويهات السلطات الاستعمارية لإسلام هذه الشعوب التي دخلت الإسلام وأحبته وبشرت به وأسهمت في نشره. وهذا ما يظهر جليا في التمعن في إنتاج هذا العالم الاستثنائي.

ثانيا : أحمد بابا شخصية استثنائية في العلاقات السودانية المغربية

تستمد شخصية أحمد بابا استثنائيتها من مستويات مختلفة تجمعت فأنتجت عبقرية خاصة. ونجمل تلك المستويات فيما يلي.

1. سياق عام: التفاعل المغربي السوداني متجذر ومستمر

يقصد المؤرخون عادة بالسودان الغربي المنطقة التي تحدها من الشمال الصحراء الكبرى، ومن الجنوب الغابات الاستوائية، ومن الشرق منحنى نهر النيجر، ومن الغرب المحيط الأطلسي.

والتفاعل الحضاري بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، تفاعل قديم، وهو أيضا تفاعل قوي ومتنوع ومستمر عبر التاريخ. فالصلات التجارية والثقافية بين هذه المناطق عبر الصحراء وجدت منذ وجد الإنسان[313].

313. دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء، ص 322

وتعززت بعد دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا، ثم إلى غربها. وهو الدخول الذي بدأ بالهجرات من شمال الصحراء لأسباب مختلفة، والاستقرار في المناطق الشاسعة للسودان الأوسط والغربي[314].

وتميز دخول شعوب السودان إلى الإسلام بميزات ذات أبعاد حضارية واضحة، وخصوصا[315]:

أ. الطريقة السلمية التي وقع بها التحول نحو الإسلام، فأوائل الذين أوصلوا الإسلام لشعوب المنطقة هم التجار والدعاة من الفقهاء وقراء القرآن والمربين والصوفية،

ب. عملية التحول كانت متدرجة سلسة في الغالب الأعم، وهو ما يتميز به الإسلام من بين الأديان الأخرى،

ت. مراعاة خصوصية الشعوب الإفريقية، والحفاظ على الهوية الأفريقية الزنجية فيما لا يخالف ثوابت الدين الإسلامي. لذلك فإن اللغات الإفريقية بقيت حاضرة محترمة، إلى جانب اللغة العربية لغة القرآن والدين.

وهكذا استقطبت الحواضر الناشئة في مختلف مناطق السودان الغربي علماء وقراء ودعاة من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وخصوصا من بلاد المغرب. كما تولى عدد من أولئك العلماء الإمامة والخطابة والفتوى والقضاء في تلك الحواضر. وتسلسلت فيها على مدى قرون أسر علمية عريقة مثل أسرة أقيت التي من أبنائها المشهورين العلامة أحمد بابا التمبكتي.

314. نفسه، ص 210 و244

315. أطال كثير من الكتاب الغربيين في الفترة الاستعمارية في تعداد الأسباب التي أدت إلى إقبال الأفارقة على الإسلام وتشبثهم به: انظر مثلا:
La politique musulmane dans l'Afrique occidentale française : p 7 - 34

وأدى هذا الاختلاط السكاني إلى ولادة ثقافة مخضرمة، يمكن وصفها بـــ«الثقافة الزنجية العربية الأمازيغية»[316].

وبالمقابل وفد على المراكز العلمية المغربية مثل فاس ومراكش علماء وطلبة من السودان الغربي، يتعلمون ويعلمون[317].

وهذا التآثر وقف عنده المؤرخون كثيرا. فالقلقشندي (ت 821هـــ) عند حديثه عن مملكة مالي في القرن الثامن الهجري: يقول بأن «كتابتهم على طريقة المغاربة»[318]. كما أشار إلى أنهم في تقاليدهم في حياتهم اليومية مثل المغاربة. فهم «يتشبهون بأهل الغرب» و«لبسهم شبيه بلبس المغاربة: جلباب ودراريع بلا تفريج»[319].

وعندما يتحدث المؤرخ عبد الرحمان السعدي (ت بعد 1065هـــ/ 1655م) عن تطور العمارة في تمبكتو، أكد بأنها لم تأته «إلا من المغرب لا في الديانات ولا في المعاملات»[320].

كما كانت طرق التدريس ومناهجه في مدارس ومساجد السودان الغربي شبيهة بما هو موجود في مدارس ومساجد المغرب.

والمصنفات المتداولة هي في أغلبها ما هو متداول في مدارس العلم المغربية، وخصوصا كتب المالكية، وكتب المغاربة منهم بالخصوص. فنجدهم يدرسون الشفا للقاضي عياض وكتب سحنون وشروح ابن القاسم ومختصر خليل وكتاب الونشريسي، وتحفة الحكام. فهذه كتب المغاربة أو كتب يعتني بها المغاربة أكثر، وتدرس في مدارسهم[321].

316. قارن ب: زوليخة بزمضان، ص 287 – 288.
317. انظر أمثلة منهم في: تاريخ السودان، ص 39، 51، 57، 322 وفتح الشكور، ص 176.
318. صبح الأعشى، 5/ 298.
319. نفسه، 5/ 299.
320. تاريخ السودان، ص 21.
321. أغلب هذه المصنفات هي الأكثر تواترا في: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، انظر فيه: فهرس الكتب، ص 277 وما بعدها. وانظر: تاريخ السودان، ص 29، 37، 38، 40، 43، 45، 46.

هذا التمازج الممتد يشكل أرضية مواتية لبروز علماء ومفكرين مثل أحمد بابا يشكلون صلة وصل بين ضفتي الصحراء.

2. سياق خاص: التألق العلمي لمدينة تمبكتو

في هذا السياق العام، تأسست مدينة تمبكتو حوالي 1100م، وكان أبناؤها يفخرون بكونها مدينة إسلامية منذ تأسيسها، كما يقول عنها المؤرخ عبد الرحمان السعدي: «مسقط رأسي وبغية نفسي، ما دنستها عبادة أوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والزاهدين، وملتقى الفلك والسيار»، ثم سرعان ما أضحت مركزا تجاريا، ثم مركزا ثقافيا. يقول السعدي: «سكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلالت وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك»[322]. وتطورت تدريجيا لتعرف في القرن السادس عشر الميلادي، مستويات علمية وثقافية وحضارية متقدمة، تستمتع بعصر ذهبي، وتصبح مركز إشعاع علمي وفكري في السودان الغربي[323].

ونقرأ في تاريخ الفتاش: «فتمبكتو يومئذ لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد مل، مروءة وحرية وتعففا وصيانة وحفظ العرض ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء، وتلطفا بطلبة العلم وإعانتهم»[324].

322. تاريخ السودان، ص 20 – 21

323. انظر تفصيل مكانة تمبكتو هذه: الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، ص 52 – 65.

324. تاريخ الفتاش (1913)، ص 179.

وكان علماؤها يتمتعون بمكانة محترمة، فقد كانت جامعة سانكوري، في هذه الفترة، العاصمة التعليمية لغرب أفريقيا. استقطبت آلاف الطلاب من جميع أنحائه، ونشرت العلوم والثقافة الإسلامية بين سكانه. كما أصبحت قبلة للعلماء الوافدين من المراكز العلمية بمختلف المناطق الإسلامية، وجلسوا للتدريس بمدارسها. وقد ذكر محمد الكعت التمبكتي أن مدارس تعليم القرآن للصبيان بلغ عددها مئة وخمسين إلى مئة وثمانين مدرسة حتى نهاية القرن العاشر الهجري[325].

وكانت لتمبكتو صلات علمية قوية بالحواضر العلمية في بلاد المغرب مثل مراكش وفاس وسجلماسة، وكان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تمبكتو، كما كان علماء المدينة كثيراً ما يقيمون بمراكش أو فاس يعلمون ويتعلمون، وقد أورد السعدي باباً مطولاً عن العلماء والصلحاء الذين سكنوا مدينة تمبكتو، وخدموا العلم والمعارف بها.

ويمثل علماء المغرب العنصر الأساسي والغالب في هذه الحركة العلمية، فما فتئ علماء المغرب يقصدون تمبكت، إما للإقامة بها نهائياً أو مؤقتاً، ولا تزال سلالة بعضهم ساكنة في بعض مدن السودان كتمبكتو وجني إلى يومنا هذا[326].

كما أن المستكشف الفرنسي فيليكس دوبوا (ت 1945م) صاحب كتاب «تمبكتو الغامضة»، لا يخفي إعجابه الشديد - على غرار عدد من المؤرخين والمستكشفين الغربيين - بالمكانة الفكرية لتمبكتو إلى حدود القرن السادس عشر الميلادي، ويقدم لنا الوصف التالي لهذه الفترة: «كانت المدينة المركز الديني والعلمي والأدبي لحوض نهر النيجر، كانت العقل المفكر للسودان»، ثم يقول: «لم تكن تمبكتو فقط أعظم مركز فكري في السودان، أي لدى الزنوج، بل كانت أيضًا أحد المراكز العلمية الكبرى في الإسلام كله. وكانت جامعتها الشقيقة الصغرى لجامعات القاهرة وقرطبة وفاس ودمشق»[327].

325. تاريخ الفتاش (1913)، ص 180
326. الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري، ص 7
327. Tomboctou la Mystérieuse, p 314.

في هذا العصر الذهبي وفي هذا الجو العلمي والحضاري المتميز نشأ أحمد بابا وتعلم، ثم على كعبه في التدريس وإنتاج المعرفة.

3. سياق أخص: تميز أسرة أقيت التمبكتية

ينتسب أحمد بابا إلى أسرة آل أقيت الشهيرة بالعلم والصلاح في السودان بعامة وفي تمبكتو على وجه الخصوص. وقد توطّنوا تمبكتو، بعد نزوحهم من بيرو (ولاتة حاليا). وهي أسرة توارث فيها العلم والصلاح طويلا، وتولى عدد من أبنائها خطتي الإمامة والقضاء، وأسهموا بفعالية في البناء الحضاري لتمبكتو وللسودان الغربي عامة. يقول المؤرخ أحمد بن خالد الناصري بأن «لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة في بلاد السودان ديناً ودنيا، بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رئاسة العلم مدة طويلة تقرب من مئتي سنة»[328].

وبذلك كانت أسرة أقيت أهم وأشهر الأسر التمبكتية قاطبة، بالنظر للعدد الكبير من الأئمة والقضاة المنحدرين منها، وخصوصا خلال القرن العاشر الهجري (16م)[329].

ونجد ابن تمبكتو محمد كعت في تاريخه يصف حال المدينة بعد إجلاء آل أقيت إلى مراكش بأنها صارت «جسما بلا روح، وانعكس أمورها، وتغير حالها، وتبدّل عوائدها، ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها، وساد أرذالها على عظمائها، وباعوا الدين بالدنيا [330]...». قد يكون في كلام هذا المؤرخ بعض المبالغة بسبب الصدمة التي أحدثها نفي كم مهم من العلماء عن المدينة، لكنه يعكس تلك المكانة المتميزة لأسرة أقيت بين أهلها.

328. الاستقصا في أخبار المغرب الأقصا، 5/ 129، أما القول بتوارث العلم فيهم لخمسمئة سنة والذي حكاه القادري في نشر المثاني، 1/ 275، ونقله عنه كثيرون، فلا دليل عليه، وهو يخالف قول أحمد بابا نفسه بأن أول من خدم العلم من أجداده – فيما يعلم – جد جده لأمه الفقيه محمود أندغمحمد الذي تولى القضاء في أواسط القرن التاسع، انظر: كفاية المحتاج، 2/ 281.

329. المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و9هـ/ 11 و16م، ص 287 – 288.

330. تاريخ الفتاش (1913)، 175.

في هذا الجو المملوء: علما ووجاهة وأدبا نشأ أحمد بابا، واستفاد من أسرته وأقاربه سواء من جهة الأب أو من جهة الأم. وقد كان أول من أخذ عنهم العلم: أبوه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت (ت 991هـ)[331]، وعمه أبو بكر بن أحمد بن عمر أقيت [332]، قبل أن يأخذه عن شيوخ تمبكتو الآخرين، وخصوصا عن العلامة محمد محمود الونكمري التمبكتي المعروف ب: بغيع (ت 1002هـ)[333].

4. شخصية أحمد بابا التمبكتي: علم وذكاء وإبداع[334]

إن استثنائية شخصية أحمد بابا في سياقنا المرتبط بالعلاقات السودانية المغربية تتبوأ مكانة خاصة، بالنظر لجوانب العبقرية التي يتمتع بها، مما جعله يتجاوز الصعاب والضغوط التي عاشها. فلا السفر الإجباري المتعب مقيدا إلى مراكش، ولا الثقاف أو الإقامة الإجبارية لسنتين، ولا الحجز في مراكش لاثنتي عشرة سنة أخرى، منعته من أن ينتج ويعلم ويفيد، ويبدع في كل ذلك. وهذا يجعلنا ندرك أننا لسنا أمام شخصية عادية، بل أمام شخصية استثنائية.

وُلد أحمد بابا في قرية قريبة من تمبكتو ليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة (963 هـ / 1556م)، وتلقى العلم بداية عن والده، ثم درس على شيوخه وبرع في علوم التفسير والحديث، والفقه والأصول، وعلوم العربية والبيان، والتصوف، والمنطق وغيرها من العلوم الرائجة في ذلك العصر[335].

331. ترجمته في: نيل الابتهاج، ص 141، فتح الشكور، 29 – 30.
332. ترجمته في: نيل الابتهاج، ص 151.
333. ترجمته في: نيل الابتهاج، ص 600 – 603،
334. عرف بنفسه في: كفاية المحتاج، 2/ 281 – 285، وورد التعريف به في: نشر المثاني، 1/ 271 – 276، روضة الآس، ص 303 – 315، خلاصة الأثر، 1/ 170، صفوة من انتشر، ص 114، تاريخ السودان، 35، 218، 244، الفوائد الجمة، ص 133 – 136. وانظر كذلك: معلمة المغرب، 1/ 165 – 169.
335. أحمد بابا: كفاية المحتاج، 2/ 281 وما بعدها

وفي محرم من عام 1002هـ، ألقي عليه القبض مع أفراد من عائلته - وهو في التاسعة والثلاثين من عمره - وحملوا إلى مراكش بأمر من أحمد المنصور الذهبي، فوصلها في رمضان 1002هـ/ ماي 1594م. حيث مكث «في حكم الثقاف» (وهو صنو الإقامة الإجبارية) لمدة سنتين. وأفرج عنه في رمضان 1004هـ، على ألا يغادر مراكش.

فبقي يدرس وينشر العلم ويفتي حوالي اثني عشر سنة. وكان يتشوف لرؤية تمبكتو، ويسكب العبرات عند ذكرها، وله في ذلك شعر منشور. وبعد تولي مولاي زيدان الحكم أذن له في الرجوع إليها. فوصلها في جمادى الأولى 1016هـ/ فبراير 1608م.

وبعد رجوعه إلى تمبكتو تفرغ للتدريس والتأليف، معتكفا للعبادة، ساعيا للخير والصلاح، فأخذ عنه كثيرون، منهم علماء وأدباء من المنطقة. وتوفي في شعبان 1036هـ/ أبريل 1627م.

ومن عبقرية أحمد بابا أنه أسر شيوخه وتلامذته وقراءه عبر القرون فحظي بتقديرهم، وأجزلوا له الثناء. لذلك قال تلميذه وصاحبه محمد بن يعقوب الإيسي المراكشي (ت 1010هـ/ 1601م) أنه لما سمح له بالخروج من «الثقاف» «فرحت قلوب المؤمنين بذلك»[336].

وقال عنه ابن يعقوب أيضا: «كان أخونا أحمد بابا من أهل العلم والفهم والإدراك التام والحسن، كامل الحظ من العلوم فقها وحديثا وعربية أصولا وتاريخا، مليح الاهتداء لمقاصد الناس (...) وكان من أوعية العلم»[337].

336. كفاية المحتاج، 2/ 283.
337. نفسه، 2/ 282 - 284.

وقال عنه المؤرخ محمد بن الطيب القادري (ت 1187هـ/ 1773م): «العالم الوحيد القدر، العلي الذكر، الذي يقل وجود مثله في الدهر»[338].

وقال عنه تلميذه وصاحبه الحاج أحمد بن محمد فهدي التواتي: «عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع راية مذهب الإمام مالك ومقدمها، العالم العلامة المقبول، الفاضل، الفهامة»[3397].

أما أحمد المقري أحد علماء العصر السعدي (ت 1041هـ) فقد وصفه بـ: «الشيخ المؤلف الكبير، العالم، الطائر الصيت (...) له يد طولى في نوازل الفقه والتاريخ لا يجارى في ذلك، وكذا في علوم الحديث مع المشاركة التامة في غيره»[340].

وقال عنه تلميذه عبد الرحمان السعدي (ت بعد 1065هـ/ 1655م): «الفقيه، العلامة، فريد دهره ووحيد عصره، البارع في كل فن من فنون العلم... برع على جميع معاصريه وفاق عليهم جدا، ولا يناظر في العلم إلا أشياخه... في الغرب اشتهر أمره وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى»[341].

هذه عينة من تلك التحليات التي تبين أنهم أجمعوا على أنه من أهل العلم والفهم والبراعة والإدراك، ولا يشذ أحد من معاصريه ومترجميه عن ذلك.

338. نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر، 2/ 304.
339. فتح الشكور، م س، ص: 33.
340. روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس: 303 – 315.
341. تاريخ السودان، ص 35، وانظر أيضا ص 218

ثالثا : وسائل إسهام أحمد بابا في التواصل الحضاري بين الضفتين

امتد إشعاع العلامة أحمد بابا عبر أدوات ومجالات عدة، أغنت كلها التواصل العلمي والثقافي بين الضفتين. وهذه أهمها:

1. التدريس

درس أحمد بابا طيلة حياته العلمية عددا كبيرا من الطلبة، سواء في تمبكتو قبل رحيله إلى مراكش، أو في مراكش أثناء مقامه الإجباري فيها، أو بعد عودته إلى تمبكت[342].

وهكذا جلس للتدريس في مرحلة الشباب، وشيوخه متوافرون بتمبكتو[342]، خصوصا أنه تفوق منذ تلك الفترة على جميع معاصريه، و»لا يناظر في العلم إلا أشياخه»[343]. وبقي في مجال التعليم والبحث في مدارس تمبكتو الى غاية 999هـ/ 1590م.

وفي مراكش بمجرد ما سمح لأحمد بابا بالخروج من مكان إقامته، وبمجرد بدء إلقائه الدروس العلمية حتى ازدحم عليه طلبة العلم، بل وأقبل عليه شيوخ وقضاة. وهذا يدل على المستوى العالي للدروس التي يلقيها. وكان مشهد المرور من الإقامة الإجبارية إلى حلقات العلم (أو من السجن إلى الإقراء)، مشهدا مؤثرا وملهما، تعجب منه الكثيرون. فهذا معاصره أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي (ت 1060هـ/ 1650م) يقول: «ومن العجب أنه لما تصدر للإقراء بجامع الشرفاء بمراكش، ورد على مجلسه لسماع الحديث وأخذ الرواية عنه أكابر فضلاء مراكش وصدور العلماء»[344].

342. انظر مثالا لمن أخذ عنه في هذه الفترة: تاريخ السودان، ص 238.
343. تاريخ السودان، ص 35.
344. الفوائد الجمة، ص 134.

كما قد وقف أحد الكتاب الغربيين أمام هذا المشهد منبهرا ومندهشا، إنه المستشرق الفرنسي أوغوست شاربونو (ت 1882م)، يقول: «ها هو هذا الزنجي، الذي غادر بالكاد الأسر الغامض، والذي اكتشف فيه حراسه خزانًا من المعرفة، محاط بمثقفي المدينة؛ يتضرعون ويتوسلون إليه أن يكشف عن علمه الثمين. يا لهيبة العلم! ومن السجن، يتم اصطحابه كما لو كان منتصرًا إلىَ جامع الشرفاء، وهو المسجد الرئيسي للمدينة، ويهرع حشد غير عادي من الطلبة المتميزين إلى دروسه»[345].

لقد كان الإقبال كبيرا فعلا، وكان من المقبلين على الاستفادة من تعليمه علماء وشيوخ وقضاة، حتى قال أحمد بابا عن نفسه: «وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها (أي طلبة مراكش) ولازموني، بل قرأ علي قضاتها»[346].

وهذه لحظة توقف عندها مترجمو أحمد بابا كثيرا، وهم يصورون ذلك الازدحام عليه. فهذا محمد بن أحمد الحضيكي (ت 1189هـ/ 1775م) يقول في تعريفه: «فلما سرح منه (أي من السجن) تصدر للتدريس وازدحم الناس عليه وتنافسوا في الأخذ عنه» [347].

كما عبر عنها القادري بعبارات غاية في القوة، يقول: «وحمل عنه علم غزير، واستفيد بما عنده من التحقيق والتحرير، وقد اشتهر فيه اشتهار أهله، وتحققت فيه مكانة قدره وفضله»[348].

345. Un instituteur nègre à Tombouctou, p. 287 -276.
346. كفاية المحتاج، ص 284.
347. طبقات الحضيكي، 1/ 45
348. نشر المثاني 1/ 274

وقد يتساءل الباحث عن هذا الإقبال الكبير على دروس أحمد بابا بمراكش، هل هو ناتج عن غزارة المادة العلمية التي يقدمها وتمكنه منها؟ أم عن عنصر الجدة في مضامينها؟ أم عن طريقة الإلقاء والعرض؟ ليس عرضنا هذا مجالا للإجابة عن هذه الأسئلة، لكن المهم أن هذا التدريس تميز بأمور ذات أهمية بالغة، منها:

أ . أن أحمد بابا طلب منه التدريس، فأبى في البداية، ثم قبل بعد الإلحاح عليه، يقول هو نفسه: «ولما خرجنا من المحنة طلبوا مني الإقراء، فجلست بعد الإيابة بجامع الشرفاء بمراكش»،

ب . أن أحمد بابا نال شرف التدريس بأهم مساجد مراكش في عهد السعديين، وهو مسجد الشرفاء[349]،

ج . أن أحمد بابا - الذي جاء من السودان الغربي - قد لقي إقبالا منقطع النظير في عاصمة بلاد المغرب السياسية والعلمية، ونفع الله به علماء من مراكش ومن مناطق أخرى من المغرب ومن خارجه، وساهم بذلك في ازدهار الثقافة الإسلامية بالمغرب. يقول محمد بن الطيب القادري: «ونفع الله به هذا القطر المغربي، وحمل منه علم غزير، واستفيد ما عنده من التحقيق والتقرير، وقد اشتهر فيه اشتهار أهله، وتحققت فيه مكانة أهله وقدره»[350].

د . أن الإقبال على دروس أحمد بابا كان من علية القوم، حتى إن عدد العلماء والقضاة وكبار رجال الدولة في مجلسه لا يقل عن عدد الطلبة العاديين[351]، وكان منهم من هو أسن منه، مثل قاضي مكناسة الرحالة المؤلف أبو العباس أحمد ابن ابي العافية الشهير بابن القاضي المزداد في 960هـ، والمتوفى سنة 1025هـ.

349. يسمى أيضا «جامع المواسين»، بناه السلطان عبد الله الغالب السعدي بين سنتي 970 و980هـ، ويوجد بالمدينة القديمة بمراكش، ومكتبته قرينة مكتبة جامع القرويين، ومنها كان أكثر استفادة أحمد بابا لتأليف كتبه، وخصوصا في تراجم فقهاء المالكية. انظر: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، 1/ 185.

350. نشر المثاني، 275

351. الحركة الفكرية في عهد السعديين، 2/ 383

هـ. أن هذا التدريس أعطى لأحمد بابا صيتا وذكرا حسنا، فاكتسحت شهرته شمال إفريقيا إضافة إلى شهرته في السودان الغربي، يقول عن نفسه: «واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر ممن قدم علينا إلى مراكش: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط»[352].

و. أن هذا الاندماج السريع لأحمد بابا في البيئة المراكشية بصفته مدرسا يأخذ عنه شيوخ العلم قبل طلبته، دليل على تمكنه من العلوم التي يدرسها من فقه وحديث نبوي ولغة وغيرها، ودليل على عبقريته التي تحدت الغربة والمحنة بنجاح. وهي أيضا دليل على المستوى العلمي العالي في السودان الغربي، وفي مدينة تمبكتو على وجه الخصوص.

ز. بمراجعة المتون والمصنفات التي يعتمد عليها أحمد بابا في التدريس، نجدها نفس المتون المعتمدة في بلاد المغرب، مما يدل على ذلك التمازج العلمي والتواصل الفكري بين ضفتي الصحراء. يقول أحمد بابا عن برنامجه التعليمي: «أقرئ مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق، ونقل وتوجيه وكذا تسهيل ابن مالك وألفية العراقي، فختمت علي نحو عشر مرات، وتحفة الحكام لابن عاصم، وجمع الجوامع للسبكي، وحكم ابن عطاء الله، والجامع الصغير للجلال السيوطي قراءة تفهم مرارا والصحيحين سماعا علي وإسماعا مرارا ومختصرهما، وكذا الشفا والموطأ والمعجزات الكبرى للسيوطي، وشمائل الترمذي والاكتفاء لأبي الربيع الكلاعي وغيرها»[353].

ح. يصعب تقصي كل من أخذ عن العلامة أحمد بابا، إلا أنه يمكن التأكيد على أنهم كانوا من الفضاءين: المغربي والمغاربي من جهة، والسوداني من جهة أخرى. ومنهم من أخذ عنه بتمبكتو قبل مجيئه مراكش، ثم

352. كفاية المحتاج، 2/ 285
353. نفسه، 2/ 284.

حضر مجالسه بعد رجوعه منها، وذلك مثل ابن شيخه الذي لازمه كثيرا: المصطفي بن أحمد بن محمود بغيع (ت 1025هـ/ 1616 م)، والذي تولى الإمامة والخطابة في تمبكتو إلى أن توفي. وقد قرأ عن أحمد بابا قبل ذهاب هذا الأخير إلى مراكش، ثم حضر مجالسه بعد عودته[354].

إن مجمل هذه المقدمات، يضاف إليها نوعية القامات في العلم والفتوى والتأليف والتربية والقضاء الذين أخذوا عن أحمد بابا، يدل على الحجم الكبير للتأثير العلمي والفكري الذي طبع به المرحلة، وعلى دوره المهم في تمتين العلاقات العلمية والثقافية بين الفضاءين المغربي والسوداني.

2. الإجازة العلمية[355]

الإجازة في الثقافة الإسلامية هي إذن العالم أو الشيخ لتلميذ من تلاميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته. وقد اهتم بها العلماء وتسابقوا على نيلها وتحصيلها، وروايتها لمن يأتي بعده.

وهي وإن كانت وسيلة لنقل المعرفة بطريقة موثوقة، فإنها شكلت أيضا عبر التاريخ طريقة مهمة للتواصل العلمي والفكري.

وقد منح أحمد بابا العديد من الإجازات لعلماء وطلاب سودانيين ومغاربة، مما ساهم في توطيد العلاقات العلمية والثقافية بين الفضاءين. فهذه الإجازات لم تكن مجرد شهادات علمية تحمل الإذن بالرواية عن الشيخ، بل كانت أيضا تعبيرًا عن معاني الأخوة والمودة، وعن روابط ثقافية وعلمية وتربوية متينة بين العلماء.

354. تاريخ السودان، ص 238 – 239

355. فصل في الموضوع: عبد الرحمان محمد ميغا: الإجازة العلمية ودورها في التواصل العلمي بين علماء المغرب والسودان الغربي، إجازات أحمد بابا التمبكتي أنموذجا، موقع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة.

وقد كانت الإجازات العلمية التي منحها أحمد بابا لعدد من العلماء المغاربة مبعث اعتزاز وفخر لهم، فحرصوا على تثمينها والتعريف بها، وأضحت إرثا مشتركا ووسيلة كبيرة من وسائل تمتين العلاقة بين الفضاءين.

فهذا محمد بن أحمد الحضيكي (ت 1189هـ/ 1775م) في تعريف أحمد بابا يقول: «وبقي هو يدرس الفقه والحديث وغيرهما، وأخذ عنه خلق كثير، وأجازهم بأسانيده»[356].

ومن الذين أجازهم: أحمد بن محمد المقري أجازه إجازة طويلة مفصلة، أوردها هذا الأخير بتمامها في كتابه روضة الآس[357]، وذلك بعد أن حلى شيخه أحمد بابا بقوله: «الشيخ المؤلف الكبير المصنف العلم الطائر الصيت».

ومنهم كذلك تلميذه الفقيه أحمد بن الحاج محمد فهدي بن أبي فهدي التواتي ثم المراكشي الذي يقول بعد أن استعرض العلوم والمصنفات التي تلقى عنه: «وأجازني جميع ذلك إجازة مطلقة من غير تقييد رحمه الله تعالى»[358].

ومنهم كذلك أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التلمساني، خطيب الجامع الأعظم بتارودانت. أخذ عن أحمد بابا في مراكش صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وسنن أبي داود والشفا وغيرها من كتب الحديث والفقه، وأجازه فيها إجازة عامة مطلقة[359].

وممن أجازهم أيضا الإمام المحدث أبو الفضل يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي.[360]

356.طبقات الحضيكي، 1/ 45
357.روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، ص 305 – 312,
358.فتح الشكور، ص 34.
359.أورد نصها كاملا في: الفوائد الجمة، 417 – 421.
360.نفسه، ص 417.

ومما يعكس مكانة أحمد بابا في الأوساط العلمية المغربية حرص بعضهم على الحصول على إجازته ولو بالمراسلة، كما فعل أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي إذ راسل أحمد بابا يطلب منه أن يجيزه الرواية عنه بأسانيده، فأملى هذا الأخير على ولده محمد إجازة عامة للتمنارتي[361]. وقد منح أحمد بابا هذه الإجازة في آخر أيام حياته عام 1035 هـ/ 1626 قبيل وفاته بعام واحد، وهو في مدينة تمبكت، و لم يلتق أحمد بابا بالتمنارتي، ولكنه كان يسمع عن نشاطه العلمي عندما كان في مراكش.

3. التأليف

كان أحمد بابا غزير التأليف، أثرى المكتبة المغربية والسودانية بمصنفات ورسائل في علوم عدة. واختلف في إحصائها بسبب فقدان كثير منها[362]. وقد أورد البرتلي الولاتي في كتابه «فتح الشكور» منها تسعة وثلاثين عنوانا[363] ، وأوصلها الدكتور محمد مطيع إلى واحد وستين عنوانا[364]. لكن الراجح أنها تفوق هذا العدد بغير قليل[365].

361. الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، ص 133.

362. انظر نقاشا في الموضوع عند: شوقي عطا الله الجمل: أحمد بابا التمبكتي السوداني في ضوء بعض مخطوطاته بدار الوثائق بالرباط، ص 144 – 177.

363. فتح الشكور، 35 – 36.

364. أحمد باب السوداني التمبكتي، مادة في: معلمة المغرب، 1/ 164 – 165..

365. لم يورد الدكتور مطيع في لائحته مثلا كتاب أحمد بابا: «المنح الحميدة في شرح الفريدة» الذي سنشير إليه في مكان آخر من هذا العرض. و لم يورد كذلك شرح أحمد بابا على منظومة أبي زيد عبد الرحمن السوسي الرقعي لمقدمة ابن رشد القرطبي في الفقه المالكي، توجد نسخة منها بالمكتبة الوطنية بالرباط، انظر: فهرس المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية، 8/ 143.

وقد ركز مترجموه على هذه الخصلة التي تميزه عن كثير من العلماء والفقهاء الآخرين، الذين قلت كتاباتهم. فهذا المقري يقول بأن له «يد طولى في نوازل الفقه والتاريخ لا يجارى في ذلك، وكذلك في علوم الحديث»[366]. ووصفه صاحبه وتلميذه ابن يعقوب الإيسي بأنه كان «مليح الاهتداء لمقاصد الناس، ساهرا على التقييد والمطالعة، مطبوعا على التأليف»[367]. أما العباس بن إبراهيم المراكشي فقد وصفه بأنه «كان رحمه الله دؤوبا على نشر العلم، معتنيا بالمطالعة حريصا على التأليف»[368].

ويظهر من استعراض إرثه المكتوب جملة أمور منها:

أ. أن أحمد بابا كتب في مواضيع وعلوم مختلفة، من الفقه والحديث والسيرة والعقائد والتصوف، إلى التاريخ والتراجم وعلوم العربية ومواضيع اجتماعية مختلفة. وهكذا فإن تنوع هذه المواضيع وغزارتها يدل على شغفه بالتأليف، وعلى باعه الواسع في مختلف هذه العلوم.

ب. أن أحمد بابا أنتج حوالي نصف تلك المؤلفات في فترة إقامته بمراكش، ولذلك ذهب بعض الباحثين إلى هذه الفترة كانت فترة إنتاج خصب له، استفاد منها كثيرا، «وترك آثارا فكرية وعلمية لا تمحى»[369]. وكانت مكتبة جامع الشرفاء التي تحوي نفائس المخطوطات، التي أوقفها السلطان السعدي عبد الله الغالب (ت 1574م) بعد بنائه الجامع. وذكر أحمد بابا مرارا أنه استفاد من كتب أو مجاميع بها [370]،

366. روض الآس، ص 318.
367. كفاية المحتاج، 2/ 282.
368. الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، 2/ 305.
369. شوقي عطا الله الجمل: أحمد بابا التمبكتي السوداني في ضوء بعض مخطوطاته بدار الوثائق بالرباط، ص 161.
370. نيل الابتهاج، ص 57، 306، 447.

ج. أن أحمد بابا تحلى بدرجات عالية من الصبر والمثابرة، جعلته ينجز كتبا موسوعية في التراجم والفقه واللغة، على الرغم من المحن الصعبة والتحديات الكبير التي مرت به،

د. أن قيمة مصنفاته تظهر من خلال ثناء العلماء والمؤرخين عليها، وعلى قيمتها العلمية، وقد استحسنها شيخه محمد بغيع، وقرظها، كما أثنى عليها كبار علماء مراكش، وتلقوها بالقبول كما يقول صاحب «فتح الشكور»[371].

هـ. أن العلماء والمصنفين بعده أكثروا الاعتماد والإحالة على مصنفات، سواء في التراجم أو كتب الفقه والنوازل.

4. التربية والتزكية

لقد كانت علاقة أحمد بابا بالتلاميذ الذين أخذوا عنه تتجاوز البعد العلمي أو الفقهي من حيث هو دراسة متون وحفظها، إلى علاقة تربية على الإيمان والصلاح والأدب والخلق القويم. وهذا ما تعلمه هو أيضا عن شيوخه. فهو عندما يتحدث عن عمه أبو بكر بن محمد أقيت يقول: «عمي الرجل الصالح الزاهد الورع التقي الأواه الولي المبارك»[372]. ويتحدث عن أستاذه وشيخه محمد بن محمود بغيع فيقول: «شيخنا وبركتنا، الفقيه المتفنن، الصالح العابد الناسك المفتي، من خيار عباد الله الصالحين (...)»[373].

371. فتح الشكور، ص 31، 37.
372. نيل الابتهاج، ص 151.
373. نيل الابتهاج، ص 600.

لذلك كان يدرس في جامع الشرفاء إلى جانب كتب الحديث والفقه، كتبا في التزكية، مثل حكم ابن عطاء الله السكندري وشفا القاضي عياض. وتأثر طلبته بذلك، فنفخ فيهم روح المحبة والاستقامة والصلاح. وهذا يظهر في ترجماتهم له.

وأكتفي هنا بتحلية طويلة كتبها تلميذه أحمد بن الحاج محمد فهدي بن أبي فهدَي التواتي المراكشي (ت 1061هـ)، يمكنها أن تكون نموذجا لذلك. يقول: «لما فتح الله علي بملاقاة عالم الدنيا ومعلمها، حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع رواية مذهب الإمام مالك ومقدمها، العالم العلامة، المقبول الفاضل الفهامة، سيدي وبغيتي وهداي، ومسرحي ومثواي، ومهجتي وإياي، أبا العباس سيدي أحمد بابا، جعل الله تعالى أيامه للخير أسبابا، وفتح الله به إلى العلوم أبوابا، تلقيت منه ما فتح الله لي بالقبول، وألفيته علقة الوصول، فلازمت بابه المبارك ليالي وأياما، وشهورا وأعواما، وتضلعت من زمزمه بما فيه مقنع، وكنت معه كالذي يأكل ولا يشبع ...»[374]. ففي هذه الكلمات يشع التأثير الإيماني والمعنوي إلى جانب التأثير العلمي والفكري. ولا شك أن هذه الروح لها تأثير كبير في التواصل بين العلماء وطلبة العلم من الضفتين.

5. الفتوى والرسائل العلمية

إلى جانب التدريس، تصدر أحمد بابا الفتوى في مراكش، وأسندت إليه عمليا على الرغم من رفضه لها رسميا. لذلك يقول عن نفسه بعد تسريحه من السماح له بالخروج من مكان الإقامة الإجبارية وتكليفه بالدروس في جامع الشرفاء: «وأفتيت فيها لفظا وكتبا بحيث لا توجه فيها الفتوى غالبا إلا إلي، وعينت

374. فتح الشكور، ص 33.

لها مرارا فابتهلت إلى الله تعالى أن يصرفها عني، واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها، وقد قال لي بعض طلبة الجزائر وقد قدم علينا مراكش: لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط»[375].

ويقول المؤرخ عبد الرحمان السعدي: «وفي الغرب اشتهر أمره وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى»[376].

وهكذا استفتي في مسائل ومواضيع متعددة، وكانت أجوبته محترمة في المغرب وباقي بلدان الشمال الإفريقي، وفي مناطق السودان الغربي. وذلك مثل فتواه حول الأعراف السوسية، وأجوبته في موضوع استرقاق السود، وسنعود إلى دراستها بعد قليل. وهي تظهر تفاعله مع حاجات البيئة المغربية وظروفها الاجتماعية والسياسية. وهذا كما هو واضح، من أكبر وسائل التواصل الفكري والتلاقح الحضاري.

وبالإضافة للفتاوى والأجوبة بالمعنى الفقهي والعلمي، هنا التواصل بالمراسلات مع العديد من العلماء في المنطقة، لإبداء الرأي وتوجيه النصح والتنبيه لأمور في الدين. ومن أمثلته أن الحضيكي لما ترجم في طبقاته لسعيد بن علي الهوزالي قاضي الجماعة بسوس في وقته (ت 1001هـ) قال: «وجرت بينه وبين الشيخ أحمد بابا السوداني مراجعات في مسائل»[377].

375. كفاية المحتاج، 285.
376. تاريخ السودان، ص 35.
377. طبقات الحضيكي، 2/ 586.

رابعا : تأثيرات أحمد بابا العلمية والحضارية

أسهم أحمد بابا بقوة في حركة الأفكار والاجتهادات والقيم بين السودان الغربي وبلاد المغرب، وهي تأثيرات أغنت التواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء. ونجملها في أربع قضايا.

1. نشر معرفة سودانية مغربية مشتركة

فقد استفاد أحمد بابا من مكوثه في مراكش وأخذ عن كثير من علمائها وأدبائها، وتأثر بجوها العلمي، فأضاف إلى تألقه العلمي الذي أتى به من تمبكتو، تألقا آخر استفاده بمراكش.

ويذكر أحمد بابا كثيرا تنويهه وإعجابه بعلماء وأدباء لقيهم بمراكش. فيذكر مثلا محمد بن يعقوب الايسي (ت قبل 1010هـ/ 1601م) بكثير من الإشادة فيقول: «لم ألق بالمغرب أثبت ولا أوثق ولا أحدق ولا أعرف بطرق العلم منه»[378] . وقد استفاد منه في كتابيه التاريخيين: كفاية المحتاج ونيل الابتهاج، ونص في مواضع كثيرة على أنه نقل عنه. فيقول مثلا: « كذا بخط صاحبنا المؤرخ محمد بن يعقوب الأديب»[379].

وقد رأينا أنه استفاد من إقامته بمراكش، فاطلع على مكتباتها وناقش علماءها وطلبتها، فانعكس ذلك بصورة إيجابية على إشعاعه العلمي، فأنتج أو أكمل في فترة الإقامة بها أهم مؤلفاته.

378. نيل الابتهاج،
379. نيل الابتهاج، ص 139، وانظر الصفحات: 67، 92، 136، 146، 230، 231، 235، 314، 419، 388، 482، 493، 494، 495، 558.

وبهذا استطاع أحمد بابا دمج الثقافتين المغربية والسودانية في كتاباته، كما كرس بعمله وجهوده تميز الفضاء الواسع والمشترك لغرب إفريقيا وبلاد المغرب بوحدة دينية تنبني على المذهب المالكي والتصوف السني العملي، وتشابهت فيها التقاليد الاجتماعية والعلمية، مما عزز تبادل المعرفة والخبرات في التدريس والإفتاء.

ثم قام بنقل المعرفة والثقافة من المغرب إلى تمبكت، كما نقلهما قبل ذلك من تمبكتو إلى مراكش، وهذا لعمري وسيلة ناجعة في التواصل الحضاري. والراجح أنه أخذ عنه خلق كثير من علماء السودان الغربي. ومن ذلك أن تلميذه عبد الرحمان السعدي صاحب كتاب «تاريخ السودان» أورد عن أحد شيوخه «الفقيه الإمام محمد كورد بن الفقيه القاضي محمد ساج الفلاني» أنه «حضر مجلس العلامة الفقيه أحمد بابا بعد مجيئه من مراكش فحصل عدة فنون من العلم كالفقه والحديث والأصول والبيان والنحو والمنطق والعروض والحساب وغيرهم»[380]. وهناك من أخذ عنه العلم قبل ذهابه إلى مراكش، ثم حضر مجالسه العلمية بعد رجوعه منها، مثل الفقيه الإمام المصطفى بن أحمد بن محمود بن أبي بكر بغيغ (ت 1025هـ/ 1616م)[381].

وبهذا يكون أحمد بابا قد شكل نشازا من بين العلماء السودانيين الذي عرفوا وأثروا في السودان والمغرب معا.

كذلك لم يحفظ لنا التاريخ من أسماء وتراجم الفقهاء السودانيين واسعي التأثير إلا النزر اليسير. و لم يتغير ذلك كثيرا طيلة قرون طويلة. وكان أقوى من كسر هذه القاعدة، وأسمع صوت العلماء السودانيين هو أحمد بابا، وشكل هو نفسه نموذج العالم الذي تحدى الظروف الصعبة المحبطة، ليوصل علمه وينافح عن أفكاره.

380. تاريخ السودان، ص 322.
381. تاريخ السودان، ص 238 – 239.

وكانت المؤ[illegible]ت الغزيرة التي كتبها أحمد بابا، وخصوصا تلك التي كتبها في المغرب، [illegible] تفاعل مع قضايا مغربية، ومع علماء مغاربة، ثم انتشرت في السودان الغ[illegible] بناء لثقافة مشتركة لهذا الفضاء الواسع، وخصوصا أن كثيرا منها تروم [illegible]لاح الديني والاجتماعي، على الرغم من تنوع المجالات التي تنتمي إليها، [illegible]ل الفقه والتربية واللغة والتراجم. وكان لتلك المؤلفات أثر مهم على مستوى [illegible]ضفتي الصحراء الكبرى، على العلماء والمصلحين في عهده وعلى الأجيال من [illegible]ده.

وقد لقيت [illegible]لفاته صدى واسعا في المغرب، يدل على ذلك كثرة نسخها المخطوطة [illegible] المكتبات المغربية العامة والخاصة[382]، وأيضا يتجلى ذلك في اعتماد كثير [illegible]ها مراجع من قبل المؤلفين المغاربة.

كما أن نس[illegible] مخطوطاته منتشرة في عدد من المكتبات الخاصة في موريتانيا والصحراء و[illegible] السودان الغربي[383]. وبقي بعضها مراجع معتمدة في التدريس والتأليف. [illegible]ول الباحث البريطاني جون هانويك في مقال نشره سنة 1962م[384]، [illegible] واحدا من أعماله على الأقل لا يزال يُدرس في شمال نيجيريا، وهو تعليق [illegible]ويل على كتاب السيوطي «الفريدة في النحو والتصريف والخط»، سم[illegible] «المنح الحميدة في شرح الفريدة»[385].

382. انظر: مخطو[illegible]ل أحمد بابا التمبكتي في الخزائن المغربية، 1996م.

383. انظر مثلا [illegible]حة مخطوطات عدد من المكتبات الموريتانية الخاصة على موقع المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في [illegible]ل التراث والثقافة على الرابط: https://makrim.org/manuscrits.cfm
AHMAD BĀBĀ AND THE MOROCCAN INVASION OF THE SUDAN (159[illegible]84 311-328.

385.توجد نسخ[illegible] بالمكتبة الوطنية بباريس، قسم المخطوطات العربية، رقم 5467. وأشار هانويك إلى وجود نسخة في م[illegible] جامعة إبادان بنيجيريا، انظر مرجعه المذكور سابقا.

2. إنتاج سوداني لمعرفة فقهية مالكية

من تأثيرات المغرب على بلاد السودان أن كان المذهب المعتمد فيها هو المذهب المالكي بدون منازع. وكانت المصنفات المعتمدة في التدريس والفتيا والقضاء هي المصنفات المالكية، وفي مقدمتها المصنفات المغربية.

والجديد مع أحمد بابا أن أصبح لمصنفات فقهية وأخرى في تاريخ المذهب المالكي لعالم من السودان، تأثير كبير في بلاد المغرب، وفي مناطق أخرى من العالم الإسلامي. وهذا أمر قليل جدا.

وبهذا أنتج أحمد بابا معرفة فقهية مالكية سودانية المنشأ، تعزز الفضاء الحضاري المشترك. ولو لم يكن له في المذهب المالكي وتاريخ أعلامه إلا كتبه الأربعة: «نيل الابتهاج»، و«كفاية المحتاج»، و«المقصد الكفيل بحل مقفل خليل»، و«منن الرب الجليل ببيان مهمات تحرير خليل» لكفته فخرا؛ لأن هذه الكتب وجدت إقبالا كبيرا لدى دارسي المذهب المالكي بعده. قال صاحب «فتح الشكور» عن الكتابين الأخيرين: «ينقل عنهما الأجهوري في شرح المختصر». والأجهوري هو نور الدين علي بن زين العابدين شيخ المالكية في عصره (ت 1066هـ)[386].

وارتقى أحمد بابا في دراسته للفقه المالكي، إلى التوسع في دراسة مصنفاته، والتجديد في فقهه. فنجده - مع ثنائه على مختصر خليل - يعتبر اقتصار المغاربة عليه وقلة عنايتهم بمصنفات مثل مختصر ابن الحاجب والمدونة، «علامة دروس الفقه وذهابه»[387].

386. انظر ترجمته في: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، 3/ 157 – 158.

387. نيل الابتهاج، ص 171.

ولذلك نجده في فتاواه وكتاباته الفقهية يرجع إلى «المدونة» للإمام مالك كثيرا وينقل عنها مباشرة، كما ينقل عن فقهاء مالكيين مشهورين مثل أبي الأصبغ عيسى بن سهل قاضي غرناطة (ت 486هـ) صاحب «الإعلام بنوازل الأحكام»، وابن الحاجب (ت 646هـ) صاحب المختصر في الفقه، المسمى «الجامع بين الأمهات في الفقه».

وقد خصص كثيرا من رسائله لتدقيق كلام مختصر خليل أو فتح مغاليقه أو الاستدراك عليه، مثل الرسائل الأربع: «إرشاد الواقف لمعنى (وخصصت نية الحالف)» و«إفهام السامع بمعنى قول الشيخ خليل في النكاح بالمنافع» و«أنفس الأعلاق في فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصداق» و«فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق». ولأهميتها انتشرت مخطوطاتها في المغرب والسودان، كما طبعت مجموعة بالمطبعة الحجرية بفاس في عام 1307هـ/1890م.

3. الوعي بالتاريخ والاهتمام بالتاريخ المشترك السوداني المغربي

أ . ريادة في كتابة تراجم علماء السودان

يجب أن نعترف لأحمد بابا بكونه أعطانا أول الكتابات التاريخية السودانية عن السودان ومحيطه الإسلامي. فكتاباه التاريخيان: «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» و«كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» كانا أول محاولة وصلتنا لإسهام شخص ولد وعاش في السودان الغربي في كتابة تاريخ المنطقة وتاريخ العلاقة بينها وبين بلاد المغرب، من خلال التأريخ لكثير من أعلام المذهب المالكي من الضفتين.

فمن جهة أولى يعد ما كتبه أحمد بابا إضافة نوعية في باب تراجم فقهاء المالكية، ليس في أفريقيا الغربية والمغرب فحسب، بل على مستوى العالم الإسلامي كله.

ومن جهة ثانية يبقي كتابا أحمد بابا «نيل الابتهاج» و«كفاية المحتاج» المصدر الأول لمعرفة حياة الشخصيات السودانية الواردة فيهما وإنتاجها العلمي.

ومن جهة ثالثة فإن أحمد بابا يرسم في الكتابين الرائدين سيرة عدد من العلماء الذين كرسوا حياتهم للتدريس وتنشيط الحركة العلمية والفكرية في السودان وفي المغرب والأندلس، بالطريقة التي تجعل وحدة الفضاء الديني والفكري بين هذه الفضاءات أمرا مسلما به.

ومن جهة رابعة يقف أحمد بابا عند عطاءات ومصنفات تلك الشخصيات ليس فقط في الفقه والعلوم الدينية، ولكن أيضا في المنطق والفلك والطب وغيرها من العلوم المتداولة في عصره.

وإذا عرفنا أن الديباج المذهب لابن فرحون يشتمل على ترجمة ل 630 من علماء المذهب المالكي، فإن «نيل الابتهاج بتطريز الديباج، يشتمل على أكثر من 800 ترجمة، وهو بذلك أوسع موسوعة تعريفية لعلماء المذهب.

وبسبب هذه الريادة، اعتبر المستكشف الفرنسي أوغوست شاربونو (ت 1882م)، عندما اطلع على «نيل الابتهاج» في أواسط القرن التاسع عشر، أن ذلك كان اكتشافا مذهلا، وكتب قائلا: «كشف فريد وغير متوقع عن حركة أدبية في قلب أفريقيا، وهي الحركة التي كان ينظر إليها على أنها ضعيفة بسبب الوثنية. لقد كانت لدينا وثائق عن إنتاج الأرض وعن التجارة في هذا البلد الذي يكاد يكون غامضًا؛ وكانت لدينا معلومات عن الممارسات والعادات الدينية للسكان الأصليين؛ لكن لم تصل إلينا إلا بالكاد بعض المعلومات البسيطة عن حياتهم الفكرية (...). كل ما نشر من قبل كان ناقصا لولا أننا اكتشفنا كتاب أحمد بابا التمبكتي»[388].

388. Un instituteur nègre à Tombouctou, p 277.

ب. أول معرف بالتراث الحضاري للسودان الغربي

قد يكون أحمد بابا أول عالم سوداني يصف النشاط العلمي والثقافي السوداني في مختلف جوانبه. فهو لم يركز فقط على الجوانب العلمية والدينية من حياة علماء المنطقة، ولكنه قدم كذلك لمحات عن الحياة السياسية والاجتماعية لكثير من مترجميه، ولمحات عن الظروف العامة التي عاشوا فيها.

وكان من نتائج هذا السبق، أن المستكشف الألماني بارث هينريتش عندما وقف في القرن التاسع عشر على مخطوطة من كتاب «تاريخ السودان»، نسبه ببساطة إلى أحمد بابا. وكان أول من دحض هذه النسبة، الصحفي الفرنسي فيليكس دوبوا عام 1897 في كتابه «تمبكتو الغامضة»[389]. وتلك النسبة المتسرعة من قبل المستكشف بارت لا يرجع فقط - حسب ما قال هوداس في تقديمه للترجمة الفرنسية لـ«تاريخ السودان» - إلى حقيقة أن أحمد بابا كان الكاتب الأكثر شهرة من المنطقة، وربما المؤرخ السوداني الوحيد المعروف في تلك الفترة، ولكن يرجع كذلك إلى وجود تشابه في طريقة الكتابة بين كتاب «تاريخ السودان» وبعض مؤلفات أحمد بابا[390].

وقد تبين بعد ذلك أن «تاريخ السودان» كتبه عالم آخر من المنطقة هو عبد الرحمان السعدي.

389. Tomboctou la Mystérieuse, p 419.
390. Tarikh Es-Soudan, p X.

والراجح أن عمل أحمد بابا كان بداية الشرارة للاهتمام بتاريخ المنطقة. تأثير في عدد من اثنين من تلامذته الذين كتبا أول وأهم مصدرين سودانيين عن تاريخ السودان الغربي وصلا إلينا، وهما تاريخ الفتاش لمحمود كعت التمبكتي، وتاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي.

فمحمود كعت التمبكتي يرجع في كتابه[391] الذي يوصف بأنه «أول سجل تاريخي عن بلاد السودان الغربي يصل إلينا»[392]، في تدقيق معلوماته التاريخية كثيرا إلى أحمد بابا[393]، ويكنيه أحيانا بقوله «سيدي أبو العباس» أو «سيدنا أبو العباس». والراجح أن محرر الكتاب هو ابن المختار سبط محمود كعت حفيد محمود كعت الجد، وقد ولد ابن المختار بعد رجوع أحمد بابا من مراكش، لذلك استفاد منه كثيرا كما رأينا.

أما عبد الرحمان بن عبد الله السعدي (ت بعد 1065هـ/ 1655م) فقد حضر دروس أحمد بابا بعد رجوعه من مراكش وسمع منه[394]، واستفاد من كتبه، وخصوصا كتابه «نيل الابتهاج»[395].

وقد تبين في مقدمة السعدي لكتابه «تاريخ السودان» أن الاهتمام بالتاريخ كان ضامرا في عهده، فلم يصل إليه مؤلف مستقل كتبه سوداني أو شخص سكن السودان قبله. يقول: «ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه وذهاب دينارة وفلوسه، وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رويت من ذكر ملوك السودان أهل

391. راجع الملاحظات حول دور كل من حفيد محمود كعت وسميه، وكذلك سبطه ابن المختار في إتمام الكتاب في: تاريخ الفتاش (2014)، ص 19 وما بعدها.

392. تاريخ الفتاش (2014)، ص 15.

393. تاريخ الفتاش (1913)، ص 52، 85، 93، 115، 121، 178.

394. تاريخ السودان، ص 35.

395. انظر مثلا: تاريخ السودان، ص 37، 64، 70، 173.

سغي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم، وذكر تمبكتو ونشأتهم ومن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية سلطان مدينة حمراء مراكش».

ج. التأريخ جسر للتواصل

إن هذا العمل التاريخي هو في حد ذاته صلة وصل، فهو يعرف المغاربة بعلماء السودان، ويعرف السودانيين بعلماء المغرب. وخصوصا أن التراجم التي كتبها أحمد بابا □ كما أشرنا إلى ذلك من قبل – ليست مجرد تعريف بارد بشخصيات المذهب المالكي، بل يركز كثيرا على ظروفها وتأثيراتها في محيطها، ويقوم أحيانا بإبداء رأيه، مما أضفى على كتابته الكثير من الجدة والحيوية.

ولذلك فإن كتابي أحمد بابا إذ يعتبران مرجعا أساسيا لسيرة عشرات الشخصيات من الفقهاء والقضاة الذين ينحدرون من تمبكتو أو استقروا فيها أو مروا من مناطق من السودان الغربي، فإن الكتابين هما أيضا مصدران أساسيان لمعرفة الشخصيات المغاربية والأندلسية الواردة فيهما. لذلك اعتبر ليفي بروفنصال «نيل الابتهاج» من أهم المصادر المتعلقة بتراجم المالكية المغاربة فقال: «إن أحمد بابا التمبكتي جدير بان يسجل اسمه ضمن المؤرخين غير المباشرين للمغرب أواخر القرن السادس عشر الميلادي»□□□.

يقول ليفي بروفنصال: «أحمد بابا سوداني الأصل، معتز بالانتساب لبلاده لا يبغي بها بديلا، إلا أن المغاربة يعدونه من علماء المغرب الأقصى نظرا لمتانة الوشائج التي تربطه بهذه البلاد»□□□

396. مؤرخو الشرفاء، ص 176.
397. مؤرخو الشرفاء، ص 176

وعلى الرغم من أهمية اهتمام أحمد بابا بالتراجم، فهي على كل حال من أبرز أنواع الكتابة التاريخية، إلا أن أحمد بابا كان كذلك يستحضر الحس التاريخي ويوظف التاريخ في مؤلفات فقهية أخرى. وكان فيها متسلحا بالوعي بقيمة التاريخ، وكان يوظفه للدفاع عن آرائه ومواقفه الإصلاحية.

ففي كتابه «معراج الصعود إلى نيل مجلوب السود»، يستعمل المعلومات التاريخية والجغرافية البشرية للدفاع عن رأيه الرافض للتمييز على أساس العرق أو اللون، والمؤكد على حق الإنسان في الحرية. فعزز فتواه في هذا المجال بمعلومات دقيقة عن بلاد السودان، وظروف انتشار الإسلام في مختلف مناطقها، مستدلا بأقوال المؤرخين وخصوصا ابن خلدون. وكأنه يضع تحت تصرف أولي الأمر والمفتين والقضاة المعلومات الضرورية لمواجهة أو تجنب الخروقات والتجاوزات.

4. مواجهة استرقاق الأحرار

من البصمات التي تركها أحمد بابا في الفكر الإسلامي على ضفتي الصحراء، ونافح عنها بقوة، قضية المساواة بين البشر ورفض استرقاق السود بسبب لونهم.

لقد عاش أحمد في مراحل كانت فيها تجارة العبيد منتشرة، فدَفَعَت شهرته الكبيرة في عام 1613م، العلماء في «توات» إلى مكاتبته للتشاور معه حول الوضع القانوني للسودانيين المستعبَدين. فكتب رسالته: «معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود» أو «الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان». كما وردت أحمد بابا أسئلة أخرى في الموضوع من يوسف بن إبراهيم بن عمرو الإيسي السوسي، ونشرت إجابة أحمد بابا المقتضبة عليها في آخر «معراج الصعود».

وقد دافع فيهما أحمد بابا عن أفكار وقيم واضحة، منها:

- أن جميع البشر يولدون أحرارًا، وأن العبودية هي حالة ناتجة عن ظروف خاصة مرتبطة بالحروب والأسر، وليست حالة طبيعية أو دائمة، ولا يجوز استرقاق المسلم ولا الذمي ولا المعاهد (وهو غير المسلم الذي تربطه معاهدات بالمسلمين) (ص 53). ويؤدي هذا التدقيق المهم إلى وعي أحمد بابا بأن الرق لم يكن مرتبطا بالكفر أو بالاختلاف في الدين، وإنما بالحرب.
- رفض التمييز بين بني البشر على أساس العرق أو اللون، فلا فرق في الدين بين السود والبيض، فقبائل السودان الغربي «مسلمون أحرار لا يجوز تملكهم بوجه» (ص 57)، وهنا دحض أحمد بابا بقوة ما تروجه بعض الكتابات - الإسلامية وغير الإسلامية على السواء في تلك الفترة - من لعنة تنسب لنوح عليه السلام على العرق الأسود، وبين أن هذا يتنافى مع المبادئ الإسلامية الصريحة والقاطعة.
- الحث على اعتماد «الاحتياط والورع» والإحجام عن الاسترقاق إذا تعذر التمييز بين المباح والمحظور (ص 90)،
- التأكيد على ضرورة التعامل مع الأسرى والعبيد بطريقة إنسانية وفق تعاليم الشريعة الإسلامية، التي تأمر باحترام كرامتهم وحقوقهم الإنسانية، وتنهى عن استغلالهم بطرق غير شرعية وغير إنسانية، لأن «الجميع من ولد آدم» (ص 65)،
- التحفظ من حيث العموم على الاسترقاق بقوله: «مجرد الملكية يكسر القلوب غالبا لما فيه من القهر والاستيلاء، سيما مع التغرب عن الوطن» (ص 65).

ومن المهم التأكيد هنا على أن هذا الموقف متقدم جدا مقارنة مع الكثير من الأفكار والممارسات السائدة في عصره، والتي تنافي قيم الإسلام وتنافي فتاوى

الفقهاء، كما تنافي بشدة ممارسات سادت لمدة قرنين على الأقل بعد ذلك في أوربا وأمريكا.

فخلال القرن الخامس عشر، بدأت أوروبا تتفوق على مناطق العالم الأخرى في تجارة العبيد من أفريقيا إلى الأمريكيتين ومناطق أخرى تسيطر عليها القوى الغربية. وعلى مدى قرنين ونصف القرن تعرض حوالي أربعون مليون إفريقي للاسترقاق بهذه الطريقة. ورافق ذلك معاملات فظيعة ليس لها حدود في الإيذاء والهمجية، مثل التجويع والضرب والتكديس والتعريض للأمراض، وفي كثير من الأحيان يلقى المرضى والذين لا يمكن الاستفادة منهم للحيتان في البحر دون أي رحمة[398]. ولم تصبح تجارة الرقيق الدولية غير قانونية، في الدنمارك إلا في عام 1804؛ تلتها بريطانيا في عام 1807 والولايات المتحدة الأمريكية في عام 1808.

وقد استدل أحمد بابا في تقريراته بالعديد من فتاوى فقهاء المالكية في المغرب والأندلس. وكان يبحث - كما أكدت على ذلك محققة «معراج الصعود»[399] - في كيفية تقليص الهوة بين مقتضيات الخطاب الشرعي والقيم الإسلامية في موضوع الاسترقاق من جهة، وواقع الممارسة بما يشوبها من خروقات وتجاوزات من جهة أخرى.

إن هذا الموقف المناهض للعنصرية وجد صدى إيجابيا كبيرا لدى عدد من العلماء والمؤلفين المسلمين.

398. Traite des noirs : précis historique, Paris, 1830

399. معراج الصعود، ص 23.

فعلى الرغم من أن الإشارة إلى الموضوع بنفس الرؤية أو قريب منها متداول في الكتابات الفقهية، وإن بعبارات مقتضبة أحيانا. وذلك مثل أجوبة محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ/ 1503م) التي أكدت على عدم جواز استرقاق الأحرار من السود[400]، وفتوى عامة ومقتضبة جدا لجلال الدين السيوطي (ت 1505م) ضمن جوابه على أسئلة واردة من التكرور سنة 893هـ[401]، وجواب أبي العباس الونشريسي (ت 914هـ/ 1509م) عن سؤال في الموضوع[402]، **إلا أن عمل أحمد بابا قد يكون أول رسالة خاصة بموضوع العبيد المجلوبين من السودان.** وقد لقيت الاهتمام الكبير في المغرب وفي غرب إفريقيا. يدل على ذلك كثرة نسخها المخطوطة في المكتبات المغربية. فلها عدة نسخ في المكتبة الوطنية (الخزانة العامة بالرباط)، وعدة نسخ في الخزانة الملكية، ونسخ في عدة مكتبات خاصة مثل خزانة عبد الله كنون وخزانة علال الفاسي وغيرهما[403]. كما انتشرت نسخها المخطوطة في المكتبات الخاصة في السودان الغربي وشمال إفريقيا.

وفي عهد السلطان العلوي مولاي إسماعيل (ت 1139هـ/ 1727م) عرف المغرب نقاشا قويا أثناء تأسيس «جيش البخاري»، إذ عارض عدد من العلماء بعض إجراءات تكوينه. منهم العلامة الحسن من مسعود اليوسي (ت 1102هـ/ 1691م)[404] وأبي حامد محمد العربي بردلة (ت1133هـ/ 1720م) [405]، الذي استند في كتابه إلى السلطان على قواعد واضحة منها أن «الحرية حق من حقوق الله تعالى» و»تشوف الشارع للعتق وحثه عليه»، وعبد السلام بن حمدون جسوس (ت 1121هـ/ 1708م)[406].

400. أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، ص 40 – 41.
401. الحاوي للفتاوي،
402. المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، 9/ 239 – 240.
403. انظر تفصيل تلك النسخ في مقدمة تحقيق «معراج الصعود»، ص 26 – 33.
404. انظر رسالته إلى مولاي إسماعيل في: نشر المثاني، 3/ 32 – 37.
405. ورد كتابه إلى السلطان في الموضوع في: نوازل العلمي، 1/ 277 – 285.
406. الاستقصا، 7/ 94 – 96، وانظر آراء في الموضوع مثلا في: الاستقصا، 7/ 88، الجيش العرمرم الخماسي، 1/ 143.

ومن الصعب على الباحث التأكد من اطلاع هؤلاء العلماء على رسالة أحمد بابا وتأثرهم بها، فالمبادئ التي استندوا إليها متداولة في كتب الفقه عموما، وكتب الفقه المالكي على وجه الخصوص. لكن ثبت لدينا أن هناك من العلماء والمصلحين من استفاد من أحمد بابا واستند إلى تحقيقاته في السودان وفي المغرب.

فقد استفاد منها العالم الإفريقي المجدد والمصلح عثمان بن فوديو (ت 1232هـ/ 1817م) وأورد بعضا من كلام أحمد بابا في الموضوع في كتابه «بيان وجوب الهجرة على العباد»[407]. كذلك ناقش بعضا من كلامه محمد بلو بن عثمان بن فودي (ت 1252هـ/ 1837م) في كتابه «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور».

أما في المغرب فنجد من الذين ساندوا ما دافع عنه أحمد بابا، الفقيه والمؤرخ المغربي أحمد بن خالد الناصري (ت 1315هـ/ 1897م)، فقد أشار في كتابه الاستقصاء إلى رسالة «معراج الصعود»، وأورد بعضا من كلام أحمد بابا، كما انتقد كثيرا ممارسات الاسترقاق التي كانت تمارس في عهده. فبعد أن أثنى على ما كان عليه أهل السودان «من الأخذ بدين الإسلام من قديم، وأنهم من أحسن الأمم إسلاما وأقومهم دينا، وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلا ومحبة»، استشنع «ما عمت به البلوى ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق أهل السودان مطلقا»، حتى صار «كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون وكونه مجلوبا من تلك الناحية. وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين، إذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم ما لنا وعليهم ما علينا»[408].

407. بيان وجوب الهجرة على العباد، ص 95 – 96.
408. الاستقصا، 5/ 131 - 134

وفي رؤية إنسانية متقدمة دافع الناصري عن إنهاء بيع العبيد في الأسواق مستندا إلى نصوص من القرآن والسنة وأقوال الفقهاء وفي مقدمتهم الإمام مالك بن أنس، وصرح بأن سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مفقود اليوم، وإلى قاعدة مهمة وهي أن «الأصل في نوع الإنسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق، ومدعي خلاف الحرية مدعٍ لخلاف الأصل»

ومما يدل على الاهتمام الواسع بمواجهة هذه الظاهرة ورود استنكار لها في الرسالة التي بعثها السلطان الحسن الأول (ت1311 هـ / 1894) على رأس القرن الرابع عشر إلى عموم المغاربة. فنقرأ فيها: «ومن المنكر الذي لا يسع التغافل عنه والتساهل في أمره: هذا الخطب النازل الوقتي الذي هو المجاهرة باستعباد الأحرار، واسترقاقهم بدون وجه شرعي[409]»

409. ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، 2/ 270

في الختام

حاولنا في هذا العرض التدليل على أن إسهام أحمد بابا في تمتين جسور التواصل المغربي السوداني، الذي كان موجودا أصلا، كان استثنائيا، وإبداعيا، وأنه استند في ذلك على مبادئ وقيم وموجهات ذات أفق إيماني وإسلامي وإنساني.

وهو وإن سلك في ذلك الوسائل المتعارف عليها في عصره من التدريس والإجازة العلمية والتأليف والتربية والفتوى والمراسلات العلمية، إلا أنه نفخ روحا قوية في الصلات الحضارية المغربية السودانية بقيت آثارها شاهدة ومؤثرة على مدى القرون. وهو ما جعل أعماله وإنتاجاته تحظى بالحظوة والتقدير على ضفتي الصحراء، وفي مناطق أخرى من العالم الإسلامي. واستلهم العديد من العلماء والفقهاء من أفكاره وأعماله وسعوا إلى تطويرها والبناء عليها.

وقد أعطى استقرار أحمد بابا التمبكتي بمراكش بعدا خاصا لذلك التواصل الحضاري بسبب شخصيته القوية والمبدعة، وقدرته على التكيف مع الظروف الصعبة التي عاشها في محنته، وتحويل كل ذلك إلى نقاط قوة، مكنته من أن يكون جسرا للعلم والتدين والثقافة الإيجابية والقيم السليمة، وشكل قيمة مضافة للتراث الإفريقي/السوداني المغربي المشترك.

فأسهم بالتالي في التلاقح الثقافي وحركة الأفكار وترشيد الفعل الاجتماعي ومواجهة عدد من الانحرافات في الفكر والممارسة، وتقوية اللحمة الدينية والحضارية بين شعوب الفضاء السوداني المغربي.

المصـــادر والمراجـــع

المراجع العربية

- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ابن زيدان عبد الرحمن بن محمد السجلماسي، تحقيق الدكتور علي عمر، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1429هـ/ 2008م
- الإجازة العلمية ودورها في التواصل العلمي بين علماء المغرب والسودان الغربي، إجازات أحمد بابا التمبكتي أنموذجا، لعبد الرحمان محمد ميغا، موقع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة؛ https://fm6oa.org/revue/article/الإجازة-العلمية-ودورها-في-التواصل-الع/
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري؛ حققه ولدا المؤلف أ. جعفر الناصري و أ. محمد الناصري، 1997م
- أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، محمد عبد الكريم المغيلي؛ تقديم وتحقيق عبد القادر زبايدية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
- بيان وجوب الهجرة على العباد، عثمان بن فودي، تقديم فتحي حسن المصري، نشر دار جامعة الخرطوم ودار جامعة أكسفورد للنشر، 1977م.
- تاريخ السودان، عبد الرحمن السعدي، وقف على طبعه من غير تغيير نصه السيد هوداس مدرس اللغة العربية، باريز، 1898.
- تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور(2014)، محمود كعت التمبكتي، دراسة وتعليق آدم بمبا، الطبعة الأولى: 2014م، بنشرة مؤسسة الرسالة الناشرون.

- الحاوي للفتاوي، جلال الدين السيوطي، ط 1، 1421هـ/ 2000م، دار المتب العلمية – بيروت.
- الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي، أبو بكر إسماعيل ميقا، مكتبة التوبة، الطبعة الأولى 1417هـ/1997م الرياض، المملكة العربية السعودية.
- الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري، عبد الرحمن محمد ميغا، منشورات وزارة الشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة البيضاوي، 1423هـ/2011م
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، محمد حجي، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1396هـ/ 1976م.
- الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا سماتها ودور المغرب فيها، شوقي عطا الله الجمل، مجلة المناهل المغربية، عدد 7 السنة الثالثة، ذو القعدة 1396هـ/ نوفمبر1976.
- دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي؛ للدكتور مخزوم الفيتوري عطية؛ الطبعة الأولى 1998م، منشورات جامعة قان يونس بنغازي.
- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، أحمد ابن محمد المقري، الطبعة الثانية 1403هـ/1983م، المطبعة الملكية – الرباط.
- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفراني، تحقيق عبد المجيد خيالي، المركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى 1425هـ.

- طبقات الحضيكي، محمد بن أحمد الحضيكي، ط 1، 1427هـ/ 2006م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، محمد بن أبي الصديق البرتلي الولاتي، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي؛ دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1401هـ/1981م.
- الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، أبي زيد عبد الرحمن التمانرتي، تحقيق اليزيد الراضي، الطبعة الأولى 2007م مطبوعات السنتيسي = الدار البيضاء.
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد بابا التمبكتي، دراسة وتحقيق الأستاذ محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.، 1421هـ/200م،
- المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين القرنين 5 و10 هـ/ 11 و16م، زليخة بنرمضان، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1438هـ/ 2015م
- معراج الصعود أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، منشورات معهد الدراسات الافريقية 2000م.
- معلمة المغرب، معلمة المغرب الأقصى، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1410 - 1989
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، أبو العباس الونشريسي، تحقيق بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1401هـ/1981م.

- مؤرخو الشرفاء، ليفي بروفنصال، تعريب عبد القادر الخلادي، 1397هـ/1977م.
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1977م إلى 1986م،
- نوازل العلمي، عيسى بن الحسني العلمي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.، 1403هـ/1983م،
- نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التمبكتي، الطبعة الأولى 1398هـ/1989م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس.

المراجع الأجنبيـــة

- AHMAD BĀBĀ and the Moroccan Invasion of the SUDAN (1591), Hunwick. J. O. Journal of the Historical Society of (Nigeria, Vol. 2, No. 3 (December 1962
- La politique musulmane dans l'Afrique occidentale française, par Quellien A., Paris, 1910
- L'Islam dans l'Afrique occidentale, A. le Chatelier. Paris, 1899
- Tarikh Essoudan, Abderrahmane Essaadi, traduit de l'Arabe par O. HOUDAS, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1900
- Tomboctou la Mystérieuse, Felix Dubois, Paris, 1897
- Un professeur nègre à Tombouctou, Cherbonneau Auguste, In: La revue pédagogique, tome 7, Janvier-Juin, Paris, 1881